

عناقة أم عراقه

آية مسيحية للمستقبل؟

"كان كل الشعب يعظمهم (الرسل)"

في النصّ، من أعمال الرسل، الذي سمعناه اليوم، تبدو لنا واضحةً صورةُ الرسل في الكنيسة الأولى وهي تدخل العالم الواسع الذي كان يعاديها وتبدأ هنا أولى أشكال رفض العالم للكنيسة. بالوقت ذاته تظهر أولى مظاهر القوّة التي كانت عند الرسل، والتي غلبت فيما بعد سطوة هذا العالم وحكمة الفلاسفة العظام. تستحقّ هذه الصورة التاريخية منّا التأمل والتمعنّ.

تخرج إلينا من هذا النصّ صورتان، صورةُ عالم جبارٍ هرمٍ وصورةُ رسلٍ صغارٍ هم نواة طاقة سوف تغيّر وجه العالم. في أيقونة العنصرة يصوّر الرسل - صيادي السمك - وهم يتقبلون الروح القدس، ويرسم العالم تحتهم بصورة شيخ، دليل على صورة العالم الكبير والإمبراطوريات العريقة، لكنّها قد هرمت وشاخت ولا حياة بعدُ فيها! العودة إلى واقع العالم وأديانه عند قيامة المسيح توضح لنا كيف كان العالم قد وصل إلى لحظة حرجة من التاريخ، خاصّة في أبعاده الإنسانيّة. فالعالم الدينيّ اليهوديّ كان يتنهد بالانتظار للمسيح المخلّص - ولو بصور مختلفة عنه. والفراغ الروحيّ كان عارماً بسبب أنّ الدّين قتل وصيّة الله وأقام وصيّة المتديّنين، فقتلت الشريعة الحقيقة وشابهت المؤسسات الدينيّة القبور المخصّصة من الخارج بيضاء ومن الداخل عفنٌ ونتاجة. كان الواقع السياسيّ آنذاك مخيفاً، فالإمبراطوريّة الرومانيّة، وريثة الهلنستيّة بفكرها بالإضافة إلى عظمتها بطشها وجيشها، لم تتهيّب أن ترفع على خشبة في إحدى مستعمراتها - فلسطين ربّ المجد، دون دراية أنّ هذه الحبة التي تدفن ستعود وتنبت شجرةً كبيرة تغيّر الدنيا وما فيها. لكن العالم الروحيّ آنذاك كان عطشاناً إلى "جديد"! هكذا الصورة للدنيا آنذاك هي صورة عالم هرمٍ قديمٍ وصورة رسلٍ جددٍ مجدّدين.

أمّا اليوم، قد تكون الصورة سائرة إلى الانعكاس! فالعطش البشريّ اليوم إلى الجديد - تجديد وتطوير- لا يجد غالباً جوابه عند رسل المسيح، للأسف! لربّما صارت الكنيسة تمثّل العناقة في زمن

التجديد العلمي والعلمي! فيبدو العالم وإمبراطوريته الدنيوية المتمدنة بمدنية جديدة هو "حجة" ومحجّ ورجاء الناس في ديانا اليوم، بينما تتهم الكنيسة في مناطق واسعة من عالمنا بأنها تقليدية عتيقة وفارغة.

يظنّ العديدون - في أوروبا- أننا ماضون إلى زمن "ما بعد المسيحية"، فالمسيحية برأيهم كانت ظاهرةً للقرون السالفة. ولقد رفض البرلمان الأوروبيّ "العلمانيّ" الاعتراف بطلب الكنائس الكبرى في أوروبا بأنّ حضارة أوروبا اليوم هي وليدة أو وريثة المسيحية أو حتى تعود لمصادر مسيحية. وحتى هذا العرفان التاريخيّ بالجميل صار غير مقبول في زمن التمدنّ الجديد، فأين هي جدّة المسيحية وتجديدها لمستقبل العالم والبشرية؟ هل تبدّلت عراقه الكنيسة فصارت عتاقة؟

لربّما يتميّز عالمنا في الشرق هنا بشيء من التدينّ المسيحيّ بعداً والعالم كلّه متدينّ اليوم، ولكن هذا لا يعني أنّ الدينّ الذي سيختاره الناس في المستقبل هو المسيحية حتماً، إلّا إذا ما عرفنا كيف ندخله بالأسلحة التي دخله بها الرسل هؤلاء، كما يصفهم سفر أعمال الرسل اليوم. ولا تخدعنا فرادة التدينّ المسيحيّ في شرقنا، فالغد لن يعرف شرقاً أو غرباً، والعالم سيغدو قرية صغيرة، ومستقبل الأديان هو ثباتها في التجديد والعصرنة والحقّ، ولن يحتمل زمن السرعة والتطوير غداً أية عتاقة، مهما خلطناها بالعراقه.

لا يفيد المسيحية عراقه ألقى عام إذا فقدت جدّتها وتجديدها للإنسان. لم يدخل الرسل الصيادون إلى العالم الجبّار والعظيم آنذاك لا بعراقه نسب ولا بتاريخ فلسفيّ طويل ولا بإرث ماديّ غنيّ ولا بأيّ شيء مثل هذا، بل "بالتجديد". هذا هو قدر التاريخ الذي أرادته الله ذاته للناس، فزرع حبّ التطوير طبيعيّاً في الإنسان. لقد جاء يسوع مجدّداً عندما عتقتُ الذهنيّات الدينيّة، وبعضها تجددّ ولكن بعضها تعصّب وتجمّد وصلّب إله التجديد ورفض الدخول في الزمن الجديد مصرّاً على العتاقة وكأنّها العراقه.

العراقه لدين، وللمسيحية، حقيقة وميزة فريدة، لكن إذا ما حولناها إلى تقاليد جامدة أو لمفاخر باطلة انقلبت علينا وتصير المطية قبراً. ما أهّل هؤلاء الرسل لأن يفتحوا العالم الكبير الجبّار والمهيب كان ملخصاً في هذه الكلمات: "وكان كلّ الشعب يعظّمهم" ويجلّهم! فلننظر إلى فرادات هؤلاء الرسل التي أدهشت هذا العجوز الغنيّ المغرور والجبّار، عالم ذلك الزمان، الذي انقضّ على هذه الحفنة الصغيرة من البشر التي أزعجت نومه وسباته، وإذا بها تفتكُ به فتقلبه وتبدّله وتجدّده. وليسقط أيّ دين، وحتى المسيحية، إذ لا سمح الله فقدت قدرتها على التجديد، لأنّ السبب للإنسان وليس الإنسان للسبب!

لكن حاشى، الرجاء كبير. لن تغيب بين المسيحيين عيونٌ دامعةٌ وقلوبٌ متواضعةٌ لا تنعُرُ بعراقة فارغة ولا تطلب ادعاءات باطلة، بل تلتهب بالروح الذي يحددها ويحفظها فاعلة من أجل التوبة للتجديد. هذا ما تميّز به هؤلاء "الصعالكة" الصيادون فصاروا مجددّين، وهو ما يتّضح من النصّ، أنّه كان سببَ إعجاب الشعب!

أمور ثلاثة امتاز بها الرسلُ وعلينا أن نتحلّى بها، لكي تبقى العراقة عراقة ولا نقلبها عتاقة؛ لكي تبقى مسيحيين فعلة تجديد ودعاة توبة وتطوير؛ لكي تبقى كلمتنا رسالة حياة وليس شريعة موت؛ لكي لا يتكرّر ما حصل في العهد القديم، إذ انقلب الدين إلى شريعة تقتل وصية الله بين حطام الطقوس السطحيّة والتدين الأعمى غير الواعي.

الأمر الأوّل هو "النطق بالكلمة الإلهيّة". حين تصير المسيحيّة، لا سمح الله، ديننا الشخصي وليس ديانة الله، فنعلّم من عندياتنا، لا شكّ أنّ العالم سيكشف وهنها لأنّها آنذاك ستكون منّا، ونحن كالعالم، فأعمى لا يقود أعمى. لقد ظهر الرسل بين الناس آنذاك رسلاً، فكانوا يكرزون بآخر وليس بأنفسهم. مرّات عديدة نكرز نحن، من فوق منبر عراقة المسيحيّة، بأنفسنا. فترانا مرّات نبالغ بالتعالى والافتخار بالمسيحيّة، ويا ليتنا نمثلّها! ونتعالى على غيرينا لهويّة وراثناها، وهاك أعمالنا تديننا، فيتعتّر الآخرون باسمنا (المسيحيّ). هل يقتنع الآخرون أنّنا جماعة متجدّدة من أجل مسألة أو قضية؟ أم أنّهم يروننا أبناءً لهذا الدهر نتعالى بإرثٍ ليس منّا فنسيء إليه ولا نخدمه بل نستخدمه؛ لكنّه هكذا لا بدّ سيهوي، إذ لا يرتفع إلّا من اتّضع ولا يسود إلّا من خدم. هل نحن رسلٌ للكلمة أم مستهلكو كلمات؟ هل نحن مرسلون وسفراء يسوع في العالم أم مستوطنون في الدنيا نتصارع مع الآخرين على الوجود والخيرات فيها؟ عندما سنفقد هذه الرسالة سنفقد على الفور ضرورتنا وسيعتنق العالم ديناً في المستقبل ليس شبيهاً بنا، بسببنا.

الأمر الثاني هو "تكريسهم وتغانيمهم". لم يكن، آنذاك، لقب مسيحيّ يشرف بل يهدّد! والنصّ هنا يوضح أنّ مجاهرة التلاميذ باسم يسوع الذي أحبّوه كلّفهم على الفور الاضطهاد والسجن. لم يكن الرسلُ أنصافَ مسيحيين، بل كانوا مسيحيين فقط؛ وكان فخراً لهم أن يموت ويذهب أيّ شيء فيهم عدا مسيحيّتهم لأنّ كلّ ذلك ممّا لهم وليس ما "هم" أو هويّتهم. قد يكون المسيحيّ رسولاً، أو للأسف نصفَ رسول أو للأسف نائهاً بهويّة مسيحيّة! وهؤلاء الأخيرين لا يجلّهم الشعبُ ولن يقدرُوا على فتح دين المستقبل وديناه. إنّنا نحترم من يتفانى من أجل أيّ مبدأ أو دين أو حزب أو عقيدة، حتّى لو كان

برأينا أنّ مبدأه هذا لا يستحقّه. ولكن هل نستحقّ نحن مبدأنا؟ الكارز غير المتفاني هو صوت مزعج وغير مبشّر. الإيمان بنا يجب أن يقوم على الإعجاب وليس الإرغام، ولا ننتظر بشارَةً لخنوعين بل لنتحدّى بشارتنا، كبولس، العظماء، لأنّ الربح فيهم بشارَةٌ حقيقيّة. نحن نحبّ النّدّ القويّ وليس الغبيّ والضعيف، هذا الأخير إذ قبل بشارتنا سوف يعود بكسله ويفسدها! الخنوع لا يُعجب! وإيمان حقيقيّ لا يقوم دون إعجاب. إذا لم تكن نحن أنفسنا معجبين بإيماننا، فإنّ إيماننا بالواقع ميّت. التفاني والتكريس هو السهم الذي يصيب قلب الآخرين فيجرحه ويثير فيه السؤال والدعوة إلى التجديد.

والأمر الثالث هو "التواضع"! لم يدخل الرسل على العالم من فوق بل أحبّوه بضعته لأنّه ثمين مهمما ضلّ أو أخطأ. العالم أثنى من الرسول في نظر الرسول. والخاطئ أثنى من البارّ في نظر البارّ! حاشى أن يكون لنا نظرة عكس ذلك وإلّا لانقلب البرّ إلى رياء. لم يدخل الرسل العالم دخول الفاتحين الغالبين والقاهرين، بل دخلوه بكلمة المحبّة والحقيقة وروح الخدمة؛ قبل كل شيء كان إيمانهم يقوم ليس على الثقة بأنفسهم، فلا حول لهم ولا قوّة، ولا يقدرّون على عرش ولا يواجهون أي سطوة، قادوهم إلى السجن فانقادوا دون قدرة على الدفاع، لكن إيمانهم كان بإلههم - وهذا هو التواضع - وحيث تجبّرت سطوة الناس تدخّلت العناية الإلهيّة. ولم يفتح أبواب السجن زنْدُ بطرس ولكن "ملاك". نحن كأخر الناس - يقول بولس الرسول - لكن بالنعمة يتحقّق بنا ما لا يقدر عليه الناس. هذا هو بابنا إلى العالم المستقبليّ: التواضع.

بأية أسلحة سنبيشّر ونجعل المسيحيّة دين المستقبل؟ بأسلحة الرسل ذاتها: بالكلمة الإلهيّة الصافية، حين نصمت نحن ويتكلّم الروح، بالتفاني نغدو سفراء في العالم ولا نكون مستوطنين نبشّر مواطنيه بالعالم الآخر، حين نتواضع يعمل الله في قلوب الناس ولا نخاف جيروت العالم ما دما نركز بواسطة النعمة. بهذه "الجملة من الأسلحة" (πανοπλία) ندخل حلبة الزمن الآتي. فلا تفيد خوذة دون سيفٍ ولا درعٌ دون خوذة! فلا يبشّر مكرّس دون تواضع، ولا تواضع دون تكريس، ولا تكريس دون كلمة الله... بل بهذه كلّها نصير رسلاً وسفراء للمسيح. بهذه الصفات "جعل الربّ صفيّه في الأرض عجبا". بهذه الصفات قبل أهل غلاطية بولس الرسول "كملاك... ولو أراد لقلعوا أعينهم وأعطوه إيّاها..." (٤، ١٤-١٥). أسلحتنا هي ثمار الروح القدس التي ستجذب الناس إلى الإيمان، آمين.